

## المبحث الأول

### الحفر على الحجر والجص في فجر الإسلام والعصر الأموي

إن التحف الحجرية والجصية المتخلفة في المباني في صدر الإسلام قليلة جداً ونادرة المعالم الزخرفية وذلك لتقدم الزمن عليها والتجديدات التي مرت بها مما أدى إلى اندثار بعضها وتغيير المعالم الأصلية للبعض الآخر علاوة على انشغال الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده بالجهد وميلهم إلى التواضع بالحياة الذي أدى إلى عدم الاهتمام بالنواحي الجمالية - فالمساجد الأولى كانت بسيطة خالية من المعالم الفنية كمسجد المدينة وحتى بعض الأعمدة الحجرية التي وجدت إلى جانب أعمدة جريد النخل في جامع البصرة (١٤ هـ / ٦٣٥ م)<sup>(١)</sup>، وجامع الكوفة (١٧ هـ / ٦٣٨ م)<sup>(٢)</sup> في العراق، وجامع عمرو بن العاص في مصر (٢٠ هـ / ٦٤١ م) كانت قد جلبت من بعض المباني القديمة<sup>(٣)</sup>.

وقد أورد المؤرخون إلى أن الخليفة عثمان بن عفان (رض) جعل جدران وأعمدة المسجد النبوي من الحجارة المنقوشة سنة (٢٩ هـ / ٦٤٩ م)<sup>(٤)</sup> إلا أنهم لم يذكروا طبيعة تلك النقوش، كما اتضح أن بعض الأعمدة المكتشفة من المسجد الجامع في أواسط سنة (٨٤ هـ / ٧٠٣ م) كانت عليها معالم لزخرفة قديمة<sup>(٥)</sup>.

(١) الدكتور أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل)، القاهرة ١٩٦٦م، ص ١٩٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٥٣. نعمت علام: فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، ص ١٩.

(٤) فكري: المرجع السابق وص ١٧٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢١٣ و ٢١٤.

وفي العصر الأموي (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) حدث نشاط معماري تجل في المساجد الكبيرة وقصور الخلفاء والحكام مما أدى إلى ظهور الأسلوب الأموي<sup>(١)</sup> وهو أول أسلوب فني واضح المعالم اختص به العرب المسلمون.

ويعد تزيين جدران العمائر بالزخارف الجصية من أهم المميزات المعمارية المستجدة في العصر الأموي ولا سيما في سوريا<sup>(٢)</sup> فقد استخدمت الزخارف الجصية النافرة على نطاق واسع في زخرفة القصور.

وتعد زخارف قصر (خربة المفجر) من أهم تلك النماذج الجصية وذلك لاحتوائها على عناصر بشرية وحيوانية إلى جانب الزخارف النباتية<sup>(٣)</sup> والهندسية المتنوعة التي استخدمت بتحلية الوحدات المعمارية ولا سيما النوافذ المخرمة كالوريدات وأوراق الأكانثاس والأشكال الدائرية والنجمية والخطوط المنكسرة والمضفورة<sup>(٤)</sup>، كما تمثلت التزيينات الجصية في العمائر الدينية كما هو الحال في الزخارف الداخلية لبعض نوافذ مسجد قبة الصخرة<sup>(٥)</sup>.

وظاهرة تزيين جدران العمائر بالزخارف الجصية كانت معروفة في بلاد فارس والعراق وقد أدخلها العرب في عمائرهم عندما حرروا تلك البلاد عند ظهور الإسلام<sup>(٦)</sup>.

وتعد واجهة قصر المشقي المنسوب إلى الخليفة الوليد الثاني (٧٤٣ - ٧٤٤ م) من أهم أمثلة التحف الحجرية المحفورة في العصر الأموي حيث تتكون من واجهة أفقية ارتفاعها حوالي ستة أمتار مؤطرة بإفريز ضيق سفلي يبعد بمشابة قاعدة لها وإفريز علوي آخر. وهناك إفريز منكسر قسم الواجهة إلى أربعين مثلثاً بوضعيات معتدلة ومقلوبة بصورة متناوبة وقد زينت الأفاريز الأفقية والمنكسرة وأغلب المثلثات بزخارف

(١) دهباند، الفنون الإسلامية، ص ٩١، نعمت علام: المرجع السابق، ص ١٧ و ١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١.

(٣) نعمت علام: المرجع السابق، ص ٢٧ و ٣٣.

(٤) Rice (D.T.), Islamic Art, Thames and Hudson 1965, p. 14.

(٥) نعمت علام: المرجع السابق، ص ٢١.

(٦) شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، ص ١٨١، نعمت علام: المرجع السابق، ص ٣٤.

متنوعة من العناصر النباتية والكائنات الحية من بشرية وحيوانية وبواسطة الحفر الغائر<sup>(١)</sup> (شكل ١١٩).

والملاحظة الهامة بهذه الواجهة هي زخرفة جميع المثلثات المعتدلة بالزخارف الدقيقة ولا سيما النباتية منها وتمركز وردة كبيرة سداسية الفصوص في وسطها تتخللها أوراق الأكانثاس، بينما المثلثات المقلوبة لم تكتمل زخارفها إن لم تكن معدومة في أغلبها باستثناء تمركز منطقة مضلعة مزخرفة في كل مثلث بديلاً عن الوردة المفصصة التي تشغل المثلثات المعتدلة.

وربما يعزى هذا الاختلاف في زخرفة المثلثات إلى اعتماد الفنان مبدأ التنوع الزخرفي وإمكانية التمييز فيما بينها، كما تتميز المثلثات المعتدلة في جزء الواجهة الكائن على يسار المدخل، بوجود رسوم كائنات حية من طيور وحيوانات خرافية وأشكال آدمية وسط الزخارف النباتية التي طغت عليها المراوح النخيلية المجنحة وسيقان العنب وعناقيد العنب وأوراقه القرية من الطبيعة. بينما المثلثات المعتدلة الموجودة في الجزء الكائن على يمين المدخل فتتميز زخارفها بانعدام الكائنات الحية وتحوير الزخارف النباتية وتنفيذها بطريقة مجردة<sup>(٢)</sup>. ولما كان هذا الجزء من الواجهة يمثل بنفس الوقت أحد جدران جامع القصر<sup>(٣)</sup>. فمن المرجح أن انعدام أشكال الكائنات الحية فيه يرجع إلى مبدأ كراهية تصوير الكائنات الحية لدى المسلمين ولا سيما في العمائر الدينية<sup>(٤)</sup>.

وفي قبة الصخرة لوحان من الرخام يزينا الوجهين الخارجيين في إحدى الدعاملت أو الأركان الكائنة في المثلث الأوسط والمنسويين إلى عصر تشييد القبة في زمن عبد الملك بن مروان (٧٢ هـ / ٦٩١ م) وقد تمثلت في هذين اللوحين زخارف نباتية في رسوم الشجر بعضها ذات مناطق بيضوية كونتها حركات الأغصان الحلزونية

(١) زكي حسن: فنون الإسلام، ص ٥٠، ش ٣٩ و ٤٠، شافعي: المرجع السابق، ص ٢١٩، ش ١٥٦.

Greswell. *A Short Account of Early Muslim Architecture*, pp. 28, 29; *The World of Islam*, p. 15, pl. 4

(٢) زكي حسن: المرجع السابق، ص ٥٠، دهاند: المرجع السابق، ص ٩٠، نعمت علام: المرجع السابق، ص ٣٤.

(٣) الصفحة نفسها.

(٤) الباشا: فن التصوير في مصر الإسلامية ص ١٤.